المحاضرة السابعة: آليات الكتابة في النص الرحلي

إنّ تحويل تجربة الارتحال إلى نص أدبي ليس عملية اعتباطية، إذ يخضع لاستراتيجيات كتابيّة وتخطيط مسبق يعكس توجهات الذات الكاتبة التي تتعالق مع الأنساق الثقافية السائدة، ذلك أنّ هذا التحويل ليس مجرد تفريغ لمشاهدات وإنّما إعادة استحضار لما تم حفظه في الذاكرة بعد تفاعله مع المعارف الذاتية المسبقة التي تحيل في شق منها على المتخيّل الجمعي، لذا يجدر بنا الوقوف على الآلية التي اعتمدها الرحالة في إعادة صياغة التجربة الأولى (الأولى) عبر الوسيط الإبداعي (النص/ الخطاب الأدبي) لفهم بواعث الكتابة وغاياتها.

المحاضرة الثامنة: العتبات

يستلهم النص الرحلي عتباته (مصاحباته النصية) من خلال تقاطعه مع شكلين: تقاطع مع نص سردي (سير، مقامات، رسائل، حكايات شعبية...) ويتجلى ذلك في اختيار العنوان وطريقة ابتداء الحكي، أما التقاطع الثاني فمع كتب التاريخ والجغرافيا التي تؤطر النص، إذ يرد ذلك في سياق إبراز الدوافع والأسباب الكامنة وراء تجربة الارتحال الفعليّة، وهذا ما تفتقر إليه نصوص الرحلة المتخيلة.

توجد ثلاثة عناصر محورية في خطاب العتبات (النصوص الموازية) تشتغل بوصفها علامات لتفكيك بنية النص الرحلي هي: العنوان والمقدمة والبداية (الجملة الأولى في النص).

فإذا كان العنوان علامة تختزل دلالات النص وتحيل على جنسه، فإن المقدمة وثيقة الصلة بالنص لأنّها تبين خلفيات الرحلة ودوافعها، أمّا البداية (الاستهلال) فعلى الرغم من ارتباطها العضوي بالنص الرحلي فهي وفق شعيب حليفي عتبة لأنها تمثل مدخل ونقطة بداية الحكي، ولها تأثير على توجه السرد لاحقاً في باقي النص.

1/ العنوان:

يمثل العنوان عتبة مفتاحيّة ذات حمولة دلاليّة توحي بالجنس الذي ينتمي إليه النص، كما يعد امتدادا لتقليد كتابي يؤسس للتوجه العام للنص وما يضمره من خطابات، وهو حسب جيرار جينيت: "مجموعة من العلامات اللسانية التي يمكن أن توضع على رأس النص لتحدده وتدل على محتواه لإغراء الجمهور المقصود بقراءته"، ويعد العنوان في النص الرحلي امتداداً لعناوين السرود القديمة (في طريقة بنائه)، فكل دراسة للمتن لا بد أن تنطلق منه لما له من أولوية على كافة العناصر الأخرى ولما يتيحه من معطيات تسهم في كشف مغاليق النص ومضمراته، كما يكشف اختياره عن مقصديّة المؤلف واستراتيجية الكتابة لديه.

للعنوان وفق شارل كريفل ثلاثة وظائف هي: التسمياتية/ التعيينيّة/ الإشهاريّة.

يتسم العنوان الرحلي بحمولة ثقافيّة تجعله محكوماً بوظيفة توجيهيّة وتأطيريّة، فهو "ضمنيا يستدعي مجموعة معارف يفترض أن يمتلكها القارئ"، وهذا ما يستدعي وظائف أخرى حددها جيرار جينيت هي: وظيفة التحديد، الوظيفة الوصفية، الوظيفة الإيحائية، الوظيفة الإثاريّة– الإغرائية.

يمكن أن نحصر تمظهرات العنونة في النص الرحلي التقليدي ضمن أربعة أنماط:

1- إضافة اسم المؤلِف أو الوجهة إلى ملفوظ الرحلة، أو نوعيّة الرحلة وصفتها، مثل رحلة ابن جبير التي تحمل في الأصل عنوانان هما "كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" و"تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" (وضعه بعد أن قام برحلات ثلاث أهمها رحلة استغرقت أكثر من ثلاث سنوات بدأها سنة 578هـ وختمها سنة 581هـ)، ورحلة ابن بطوطة بدل "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" (استغرقت تسعة وعشرين سنة ونصف السنة، انتهت بوصوله إلى مدينة فاس عام 754هـ ودوّنها بعد عودته بطلب السلطان أبي عنان الفاسي سنة 756هـ، الذي كلّف كاتبه محمد بن أحمد بن جزي بتنقيحها) وغيرهما...، ويهدف هذا النوع من العناوين إلى تبئير المؤلِف حتى لا يلتبس النص مع نصوص أخرى تحمل العنوان ذاته، وهذا ما يعني أن إطلاق هذا النوع من العناوين يكون لاحقاً (ليس هو العنوان الأصلي) كما يهدف إلى الاختصار/ الاختزال وتحقيق التواصل وتسهيله للمتلقي، وهناك نوع يضيف صفة الرحلة إلى ملفوظها، ويرتبط عادة بالرحلات الزياريّة إلى الأماكن المقدسة أو أضرحة الأولياء بقصد التبرك أو الاستشفاء، مثل: الرحلة المقدسة لمحمد بن محمد الدلائي الفارسي (1099هـ)، الرحلة الشافية لأبي العياشي الدرعي (1144هـ)، الرحلة المباركة لأحمد بن الحسن (1310هـ)، ومن العناوين التي تربط الرحلة بمكانها نذكر: الرحلة المغربية للعبدري وهي رحلة مغربي إلى الحج (688هـ).

2- رحلات تصدرتها مفردة "رسالة"، مثل: رسالة ابن فضلان لأحمد بن فضلان، ويفسر ذلك بعدم انتشار جنس الرحلة وقتذاك، إضافة إلى تداخل الأشكال الأدبية وذيوع أدب الرسائل الذي يتضمن أخباراً بوقائع بين متكلم وقارئ متباعد في المكان والزمان، كما أنّ الرسالة تتضمن خطابا انتقاليا من مرسل إلى مرسل إليه، ففي "رسالة ابن فضلان" تتحدد مقصدية المؤلف الذي سجّل التفاصيل الكبرى لرحلته عند الصقالبة تسجيلا ينبئ بأنها رسالة وتقرير لمهمة رسمية، كما يحيل مفهوم الرسالة إلى شكل أدبي يتضمن الحديث عن قضايا ومعارف ينقلها (يوثقها/ يسجلها) مرسل إلى مرسل إليه، في حين تقدم رسالة الغفران تقريرا عن مدى مقدرة المخيلة في إنجاز وقائع عجيبة.

3- رحلات تصدرتها صفة التحفة: يتداول هذا الوصف في العديد من المصنفات الرحلية وغير الرحليّة (الأدب، الفقه، التفسير، التاريخ، التصوف وغيرها)، ويحيل العنوان على معنى الإتحاف والإمتاع، وكلما أضيف إلى تركيب تجدد المعنى وتضاعف، فالإتحاف في عنوان ابن بطوطة يرتبط بالمشاهد باعتباره فاعلاً وبالمشاهدات التي ستتحفه بالغريب والعجيب، والإتحاف وليد الحكي الذي يسلي النفس متجاوزاً الأسلوب التقريري الجاف، عبر الميل إلى التعجيب إغراء للمتلقي وإلغاءً للحدود الوهمية بين الخيالي والواقعي.

4- اللجوء إلى مفردات قريبة من معنى الرحلة أو مرادفات لها تفيد بفضل قرائن لغوية معنى السفر، مثل عنوان رحلة ابن جبير "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"، عنوان ابن رشيد الفهري "ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة" (خرج من مسقط رأسه سبتة سنة 683هـ بغية الحج فمر بالعديد من المدن الاسكندرية، القاهرة، دمشق، المدينة المنورة، مكة، طرابلس الغرب، المهدية، بونة، مالقة، رندة، وعادة إلى سبتة سنة 686هـ)، رحلة ابن مليح السراج "أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب" (1040هـ)، فمفرداتها قرائن تفيد الارتحال.

وبشكل عام تنتظم هذه العناوين ضمن مرجعيتين: الأولى مستمدة من طبيعة الجنس الأدبي وتعالقاته النصية بالأنواع الأدبية الأخرى (التناص)، أمّا الثانيّة فمستمدة من النسق الثقافي العام الذي ساهم في توجيه العناوين.

تتراوح العناوين بين البساطة والتركيب، ومن مميزات العنوان التقليدي الطول والمضمونية (بمعنى يحيل إلى مضمونه) والتسجيع، وهي شروط استدعاها السياق التاريخي والثقافي، فالغاية من الطول هي تحقيق الوضوح والإغراء، كما يوجد نوع آخر من العناوين التي تميل إلى إضفاء الغموض مثل رحلة ابن أبي محلي "الإصليت الخريت" إذ يشير إلى عنوان رحلته قائلاً " قد سميتها عذراء الوسائل، وهودج الرسائل، في مرج الأرج، ونفحة الفرج، إلى سادة مصر وقادة العصر أو إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت" (1016هـ/ خصه بأسماء كثيرة تارة يسميه بالهودج المبعوث به إلى سادة مصر أو الرسالة الشاملة أو الحكاية العائلة وتارة أخرى فهو الإصليت "وما سمي بالإصليت إلا لأنه يصل إذا ما اهتز للصيت من بيد صليل" –عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، ص 76).

2/ خطاب التقديم وتأطير النص:

يعد عنصرا بنائيا ووثيقة تمهيدية تؤطر النص وتقدم تفاصيل عن خلفيات وبواعث تشكّله . فهو خطاب حول النص يتشكل من عناصر تتوجه إلى القارئ لتوجيهه وتهيئته؛ إذ تخبره بجوهر المؤلف وظروف تحريره ومراحل تشكله، وهو وثيق الصلة بالنص ولا يوجد إلا بعد الانتهاء منه، ويتضمن عناصر تتعلق بما قبل تدوينه وأخرى بعد كتابته، وقد اعتبر التقديم في النصوص الرحلية محطة ضرورية بحكم أن النص يحتاج إلى توضيحات وتبريرات، كما أنّ قرب النص الرحلي من المدونات الجغرافية والتاريخية يستوجبه.

قد يندمج التقديم مع بداية نص الرحلة، مثل رحلة ابن جبير التي يشير فيها إلى تاريخ التقييد والمكان والقصد ثم ينتقل إلى الرحلة بشكل مباشر، وفي العموم توجد ثلاثة أشكال للتقديم:

أ–مقدمة مرتبطة بالنص الرحلي: تذكر أسباب ودواعي الرحلة، والموضوع المهيمن، ويعنى هذا النوع بخارج النص وظروف تكونه أكثر من ارتباطه بمضمون النص. مثل رحلة ابن بطوطة.

ب– مقدمة تضم ملخصا للرحلة بالإضافة إلى ذكر أقسامها، مثل رحلة عبد الغني النابلسي "الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز" (1105هـ).

ج– مقدمات تبسط موضوعها بالبسملة وتترك المقدمة للجواب عن سؤال أو الدفاع عن فكرة يتوخى المقدم من ورائها توجيه المتلقي إلى اعتقاد معين كما فعل ابن جبير في بسملته التي جعلها جزءا ملتحما مع النص.

باستثناء الخطاب المقدماتي الذي اشترك في كتابته الرحالة المؤلف ابن بطوطة والكاتب ابن جزي في "تحفة النظار..."فإن كل المقدمات الأخرى تولى تسجيلها المؤلف ذاته/ الرحالة، سيراً على سنة ضرورية في الكتابة النثريّة، لكن وظيفة المؤلف/ الرحالة في المقدمة تختلف عن وظيفته في النص الرحلي، فهو في النص الرحلي يقدم رؤيته ويبني صرحها متخذاً وضعية الراوي والفاعل؛ أي أنّه يتجلّى كذاكرة تستعيد ما التقطته من مشاهدات وسماع

وتخييلات، أمّا في الخطاب المقدماتي فإنّه يغري برؤيته ويسعى لإقناع المتلقي بها، فيتحوّل إلى ناقد يتحدث عن صنعة الكتابة والفعل المحقق لها وأسباب ذلك.

تشمل المقدمات أيضا تأثيثاً بلاغياً واعتناء بالأسلوب الذي قد لا يشبه أسلوب كتابة النصوص باعتبار أن المقدمات فاتحة الكتاب، لهذا يأتي الاعتناء بتوظيف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية المدعمة للمواقف، كما يعمد بعضهم إلى التقديم المسجوع مثل مقدمة ابن بطوطة، كما ينبري المؤلف فيها للدفاع عن بنيات النص التي تنفتح على العجائبي والمشاهدات الغريبة، فقد كتب أبو محمد الغرناطي الأندلسي في رحلته "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" التي دوّن فيها مشاهداته في بلاد المغرب والأندلس والشام ومصر وقزوين وبلاد المجر والبلغار خطاباً مكوناً من جزأين في الرد على غير المصدقين بالعجائب التي يوردها، في حين ضمّن ابن بطوطة والنابلسي قصدهما في عنوانيهما.

3/ البداية (خطاب الاستهلال):

تحدث العرب القدامى عن براعة الاستهلال فقالوا بضرورة تخير اللفظ لما لذلك من أهمية وأثر في شد المتلقي إليه، إذ لا بد أن يكون ابتداء الكلام مناسباً للمقصود والغاية المرجوة منه.

تتحقق قيمة البداية انطلاقا من تحققاتها الاستراتيجية البلاغية، وقدرتها على إقامة حوار تواصلي مع النص والقارئ.

يكمن دور البداية في افتتاح السرد وعقد ميثاق القراءة مع المتلقي، مؤسساً لأسئلة سيتم الإجابة عنها هي: من؟ لماذا؟ متى؟ أين؟ ومثال ذلك قول النابلسي "لما تحركت فينا دواعي الغرام، وتوجهت الهمة إلى المسير في جهات بلاد الشام، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة الشهر الحرام ونحن إذ ذاك في بلادنا دمشق المحروسة ذات الربوع المأنوسة" (ص41).

تربط عتبة البداية مشهد سردي مكثف ببقية المشاهد الأخرى التي تستدعيها الذاكرة، وتهدف إلى إضفاء المصداقية وتأكيد المرجعية الواقعية للمسرود، كما تعمل على توليد شعور معين من خلال تبليغ المعلومات عن طريق التكثيف، الذي يعد مدخلاً لاستحضار التفاصيل تباعاً، إضافة إلى تأطير النص والدخول إلى عوالم التخييل، وتحويل العالم الخارجي إلى عوالم داخليّة تتمظهر لغوياً، وكأن البداية هي جسر الانتقال من التجربة المعيشة إلى تحويلات هذه التجربة في لغة تحافظ على المسافة التي تفصل الواقع عن الخيال.

يشغل الراوي في البداية دور الوسيط الذي ينتقل بالقارئ بين عالمين مفترضين، فيحقق بذلك وساطة بين ذاته ورحلته أولا ثم بين العوالم التي رآها والقارئ ثانياً.

تتميز البداية الرحليّة بأنها إحاليّة محددة للمرسل (الراوي) بذكر اسمه: (قال الشيخ أبو عبد الله) ويقصد ابن بطوطة في رحلته، ويكون حضور المرسل إليه ضمنياً أو صريحاً مثل "اعلم وفقك الله أن الدنيا.." في رحلة أبي حامد الغرناطي، ويعد هذا الأسلوب تراثياً مستوحى من الجانب الفقهي.

يعلن خطاب البداية في النص الرحلي عن مقصدية سياقه المرجعي الواقعي باعتباره خطاباً من الذاكرة/ العين إلى الأذن/الخيال؛ أي من عين مشاهدة إلى أذن متخيلة.

أشارت الباحثة لونكو إلى وجود أربع وظائف للبداية تتجسد بوصفها رهانات واعية أو غير واعية وتتحقق بنسب متفاوتة من سارد إلى آخر.

1- الوظيفة السننية: تحول البداية إلى خطاب يعمل السارد من خلاله على ضمان صدق وحقيقة النص، وبالتالي توجيه الإدراك وتأطير أفق انتظاره وإدماجه (ص199).
2- الوظيفة الإغرائية: يعد رهان تحقيق التواصل مع المتلقي وخلق رغبة القراءة لديه غاية المؤلف، لذا تعمل استراتيجيات الإغراء المتعددة على إنتاج متعة الاستماع والتخيل، وهو ميثاق يعلن عن نفسه منذ البداية، مثال ذلك بداية النص الرحلي لابن بطوطة، إذ يقول: " كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام. منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وراكب أكون في جملته، لباعث في النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم. فحزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور" (مقدمة رحلة ابن بطوطة، ص33).
3- الوظيفة الإخبارية. (ذكر الرحالة ووجهته ومكان انطلاقه وتاريخه...).
4- الوظيفة الدرامية: كأن يعمد المؤلف إلى بداية سرد الرحلة عن طريق إيراد معطيات سابقة عن الرحلة يستذكرها من طفولته، وتهدف عموما لإحداث الإغراء بتتبع ما يلي من مشاهد في الرحلة.